كارل بروكلمان

بقلم الدكتور يوهان فك

١٨٦٨ — ١٩٥٦

مضى عام على وفاة المستشرق الألمانى الكبير الدكتور كارل بروكلمان الذى أدى إلى الثقافة العربية أجلّ خدمة بكتابه « تاريخ الآداب العربية » الذى يعد أوسع مرجع للباحثين فى أدبنا . وهو سجل حافل بالتراث العربى : مخطوطة ومطبوعة .

وقد اهتمت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بهذا الكتاب القيم، فأخذت على عاتقها نشره معرباً، وعهدت بذلك إلى الدكتور عبد الحليم النجار المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، فقام بترجمة الجزء الأول منه مع إضافة الملاحق والتصحيحات إليه ، ويراجع هذه الترجمة الدكتور مراد كامل عميد مدرسة الألسن .

ووفاء لذكرى هذا المستشرق الكبير ننشر فيما يلى تعريباً للدراسة التى خص بها « المجلة » الدكتور يوهان فك Johann W. Fück ، وهو من كبار المستشرقين الألمان الذين توفروا على خدمة الثقافة العربية ، وممن تخرجوا على الدكتور أوجست فيشر الذى كان عضواً بمجمع اللغة العربية . وللدكتور فك كتاب نفيس نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، ونشر عام ١٩٥١ وعنوانه «العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب» شرح فيه تطور الأساليب فى لغتنا من أول الهجرة إلى القرن الرابع . ويشتغل الآن بدراسة كتاب « الفهرست » لابن النديم وتحقيقه .

فى اليوم السادس من مايو عام ١٩٥٦ توفى بمدينة هال Halle على نهر السال Saale الأستاذ الدكتور كارل بروكلمان Carl Brockelmann صاحب السِّفْر المشهور « تاريخ الآداب العربية» "Geschichte der Arabischen Literatur" (GAL.) فى السنة السابعة والثمانين من عمره .

ولقد كان عالماً متضلعاً من اللغة العربية وآدابها ومن تاريخ الشعوب الإسلامية. وفضلا عن هذا فقد كان يتتبع فى اهتمام بالغ كفاح العرب فى سبيل حريّتهم وتقدُّمهم ، وأصدر عام ١٩٣٩ كتاباً فى « تاريخ الشعوب الإسلامية » "Geschichte der Islamicschen Völker" لكى يعرِّف قومه تاريخ العرب منذ عصر النبى (صلعم) حتى مرحلة التطوّر القائمة . ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والبولونية والتركية مما يقطع بأنه أشبع حاجة قائمة ، وسدّ فراغاً كبيراً فى نطاق الثقافة العالمية .

* * *

وُلد « بروكلمان » فى السابع عشر من سبتمبر عام١٨٦٨ فى مدينة روستك Rostock ، ولم يدرس فى جامعتها وفى جامعتى برسلاو وإستراسبورج ، اللغات السامية فحسب ، بل اللغة الفارسية والتركية والقبطية إلى جانب اللغتين اللاتينية واليونانية والتاريخ . وفى عام ١٨٩١ ظفر بإجازة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة استراسبورج ، ثم أصبح أستاذاً مساعداً فى جامعة برسلاو عام ١٩٠٠ . وفى عام ١٩٠٣ استدعى للتدريس فى قسم اللغات الشرقية بجامعة كينجزبرج Königsberg ، ثم انتقل بصفته هذه إلى جامعة « هال Halle » عام ١٩١٠ ، ثم إلى جامعة برسلاو عام ١٩٢٣ ، ثم عاد إلى مدينة « هال » عام ١٩٣٥ وظلّ قائماً بالتدريس فى جامعتها حتى وافته المنية .

* * *

وقد قام بروكلمان بزيارة البلدان الإسلامية ثلاث مرات : زار فى المرة الأولى الآستانة فى شتاء عام ١٨٩٥ — ١٨٩٦ موفداً من أكاديمية العلوم ببرلين لكى ينقل مخطوط « الطبقات » لابن سعد ، وزار فى المرة الثانية الجزائر مندوباً فى مؤتمر المستشرقين الدولى فى ربيع عام ١٩٠٥ ، وانتهز هذه الفرصة للقيام بجولة فى هذه البلاد حتى واحة بِسْكِرَة Biskra ؛ وأخيراً عاد إلى زيارة الآستانة فى عام ١٩٢٩ .

وكان بروكلمان من الموهوبين إذ حَبَتْهُ الطبيعة ذاكرة قوية ، وفكراً لمّاحاً ، وحضور بديهة، وسرعة خاطر ؛ فكان من اليسير أن تنطبع الأسماء والأشياء التى يسمع بها أو يقرأ عنها مرة واحدة على صفحة هذه الذاكرة القوية ، فلا تضيع أبداً .

وكان — فضلا عن هذا — محبًّا للنظام ، مرتب التفكير ؛ فكان عمله اليومى مقسماً تقسيماً دقيقاً . وكانت أموره تسير فى ضبط آلة الساعة ودقتها . وقد مكنت له هذه الصفات من القيام بهذه الأعمال الخالدة التى اضطلع بها . ومع هذا فقد وقاه شعوره القومى بالحقيقة ونظرته الصحيحة إلى الواقع — أن يحاول بلوغ ما لا يمكن بلوغه . ولهذا نراه فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » قد جعل رسالته مقصورة على دراسة التاريخ السطحى للأدب العربى ؛ إذ اعتقد أنه من المستحيل عند المستوى الحالى للبحوث إدراك كُنْه التطور الداخلى للأدب العربى إلا فى مناطق محدودة أو ضيقة . وكذلك فإنه لم يعتمد فى بحثه هذا إلا على التراث الأدبى الذى بقى لنا ، ضارباً صفحاً عن الأسفار التى لا علم لنا بها إلا من سِيَر الأشخاص وضروب الاقتباس ، ولذلك فإنه ، فيما عدا شعراء الجاهلية ، لم يُعْنَ بغير ما خلف الكتّاب المسلمون. وبالرغم من اقتصاره على دراسة الأدب الإسلامى ظلت المادة التى تناولها البحث ضخمة جبارة ، فارتأى أن يقسمها ثلاثة أقسام ، أفرد لكلٍّ منها جزءاً من كتابه « تاريخ الآداب العربية » .

وقد تناول فى الجزء الأول — وهو ثلاثة أقسام — الأدب الوطنى العربى منذ بدايته حتى سقوط الدولة الأموية عام ٧٥٠ م ، على حين كرّس الجزء الثانى لدراسة الأدب الإسلامى فى الفترة بين عامى ٧٥٠ — ١٢٥٨م .

أما الجزء الثالث فيتصل فيه هذا البحث حتى عام ١٥١٧ م ، ثم يُقَفّى بالفترة المتأخرة بين عامى ١٥١٧ — ١٧٩٨ ، بحيث تكون دراسة الأدب الإسلامى فى القرن التاسع عشر خاتمة المطاف .

ويقوم كل قسم من الكتاب على عدة فصول ، يتناول كلٌّ منها موضوعاً خاصًّا : ففى الفصول تدرس المشكلات العامة المتصلة بتاريخ الأدب العربى ، أما فى القسمين الثانى والثالث فنجد الحديث يجرى عادة فى كل فصل من فصولها حول شاعر واحد . ونجد ابتداءً من الكتاب الثانى أن معظم الفصول من مقالات يتناول كلٌّ منها عدداً من الكتّاب والأدباء ممن عاشوا فى فترة واحدة وربط بينهم نوع واحد من الأدب ، وقد يكونون فضلا عن هذا من بلد واحد .

ولقد اقتصر كارل بروكلمان تحقيقاً لغرضه من هذه الدراسة — على تناول الظروف الخارجية ، ووجّه جُلَّ اهتمامه إلى تعداد الكتب التى خلفها لنا كلٌّ من هؤلاء الأدباء ، جاعلا نصب عينيه ذكر المخطوطات التى وصلت إلى علمه عن كل كتاب ، فضلا عما يوجد من المطبوعات . وفى هذا تكمن — إلى جانب أدلة تُعَدُّ بالآلاف — أهمية هذه الجهود الكبرى التى قام بها فى وضع كتابه : « تاريخ الآداب العربية » ، هذا فضلا عما تتيحه للقراء من سهولة البحث والمعرفة .

وقد صدر هذا الكتاب فى جزأين كبيرين بين عامى ١٨٩٧ — ١٩٠٢ وكان لا مَعْدَى عن وجود نقص وسهو وأخطاء بدت بعد ظهور الكتاب نظراً لضخامة

مادّته ؛ مما حدا ببروكلمان إلى العمل فوراً لإصدار طبعة ثانية لم يتيسر ظهورها نتيجة للصعوبات المالية التى حاقت بالناشر .

وأخيراً قرَّر بروكلمان إصدار ملحق لكتابه باسم « ملحق تاريخ الآداب العربية » بوساطة الناشر الشهير « إ . ج . بريل » E.J. Brill بمدينة ليدن Leiden، وتمّ طبع هذا الكتاب بين عامى ١٩٣٧ — ١٩٤٢ فى ثلاثة أجزاء ، لا يفترق الأول والثانى منها عن مثيليهما فى الكتاب الأصلى ، وهما يتناولان النصوص بشرح مسهب وتذييل مطوّل ، ويشتملان على تصحيح الأخطاء إلى جانب تبيان المطبوعات والمخطوطات التى كشف عنها خلال الفترة بين صدور الطبعتين ، غير أن البيانات التى تحتوى عليها الطبعة الأولى فيما يتصل بالمخطوطات لم ترد بصفة عامة فى الطبعة الثانية لهذا الكتاب ؛ ولهذا فإن القارئ لا يستطيع أن يستغنى بها عن الرجوع إلى الطبعة الأولى إذا أراد أن يكون اطلاعه كاملا ، وألا يفوته شىء .

هذا وقد ضمَّن بروكلمان طبعته الثـانية قائمة أبجدية بأسماء الكتَّاب الذين لا نعرف فترات حياتهم إلى جانب المؤلفات التى خلفوها ؛ أما المؤلفات المجهولة فقد تركها فى هذه الطبعة كذلك .

وأما الجزء الثالث من الملحق فيتناول مادة جديدة ؛ إذ يصف فيه الأدب العربى الحديث فى الفترة بين عامى ١٨٨٢ — ١٩٣٩ . وخلافاً لنهجه فى الجزأين الأوّلين اللذين لم يهمل فيهما تناول الأدب المتخصص من الناحية الفنية — قد اقتصر فى الجزء الثالث على تناول النظم وما ينعته بالأدب الجميل . ومن الناحية الأخرى وعلى عكس ما جاء فى الجزأين الأوّلين ، فإنه لا يكتفى فى الجزء الثالث بجداول وقوائم جافة مملوءة بتواريخ وأسماء كتب ومطبوعات ومخطوطات ، ولكنه يصف مستقبل عظماء كتّاب الأدب العربى الحديث وصفاً جيداً ، ناقداً أهمّ مؤلفاتهم من نواحى اللغة والأسلوب والدوافع الأدبية .

وفضلا عن أن الكتب التى قرأها لهذا الغرض تُعَدُّ بالمئات ، فإنه كان على اتصال مستمر — عن طريق المكاتبة — بكثيرين من شعراء مصر وسورية ، وبالبارزين من رجال الفكر فى البلدين . هذا ، وينوّه بروكلمان — فى مقدمة الجزء الثالث — بالمساعدة الطيبة التى لقيها بصفة خاصة من الأساتذة : محمود تيمور وبشر فارس وحسن كامل الصيرفى وسامى الكيالى .

* * *

وإذا كان كتاب « تاريخ الأدب العربى » عند ظهور طبعته الأولى قد أكسب « بروكلمان » لقب « حاجى خليفة الألمان » فمن الأوجب أن يقرن اسمه بعد ظهور الجزء الثالث من « الملحق » باسمىْ « ابن النديم » صاحب « الفهرست » و « ابن خلّكان » صاحب « وفيات الأعيان » .

ولقد لقى « كارل » بروكلمان مزيداً من الثناء والإعجاب داخل ألمانيا وخارجها ، وتهافتت المحافل العربية والشرقية على الحفاوة به فاختير عضو شرف فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وفى الجمعية الشرقية الألمانية ، وفى الجمعية الأسيوية الفرنسية ، وفى الجمعية الملكية الأسيوية الإنجليزية ، وفى الجمعية الشرقية الأمريكية ، والجمعية اللغوية الأمريكية ، ثم عين عضواً فى أكاديميات برلين وليبزيج وبودابست وغيرها من المحافل الأدبية المختلفة . وفى عام ١٩٥١ ظفر بالجائزة الألمانية الوطنية ، وارتفع بذلك إلى علماء الصف الأول .

فالشهرة العالمية والصيت البعيد اللذان نعم بهما « بروكلمان » يرجعان إلى كتاب « تاريخ الآداب العربية » ، ولكن هذا الأدب لم يكن وحده المجال الذى عمل فيه هذا العالم الفذّ ؛ فقد كان أيضاً خبيراً ممتازاً فى اللغات السامية جميعا ، وما زالت لكتابه ذى الجزأين « أصول القواعد النحوية المقارنة فى اللغات السامية » المرتبة الأولى حتى اليوم بين جميع المؤلفات فى هذه الناحية لغزارة

مادته وتنسيقه ، مع العلم بأنه صدر فى الفترة بين عامى ۱۹۰۷ — ۱۹۱۲ .

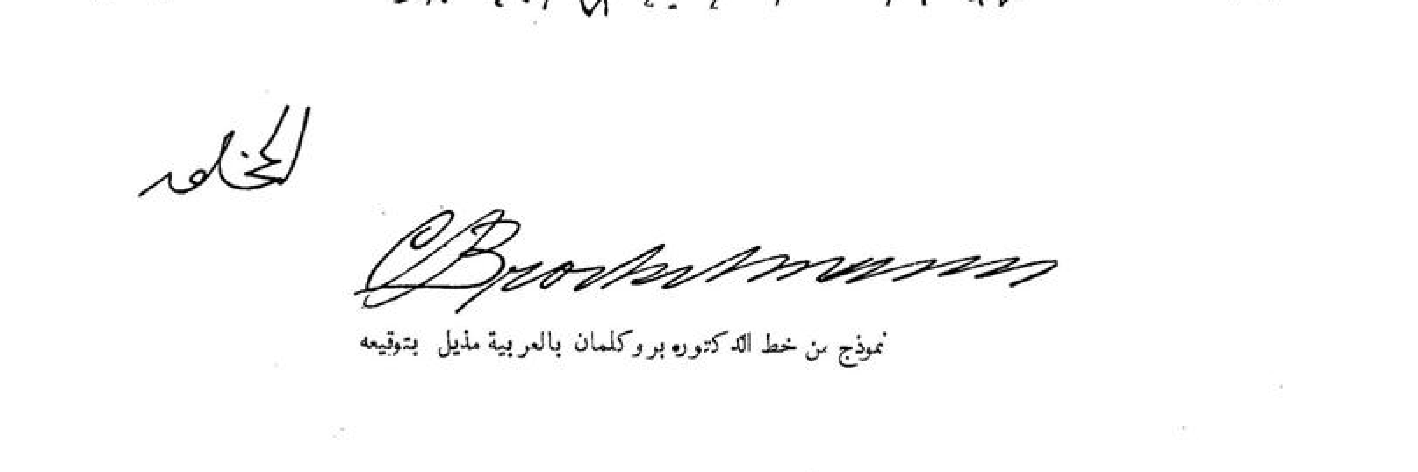
ولم تقف جهوده عند هذا الحد ، بل إنه فوق هذا اشتغل كثيراً باللغة السريانية ، ووضع « القاموس السريانى » Lexicon Syriacum الذى صدرت الطبعة الأولى منه عام ۱۸۹۵ ، والطبعة الثانية عام ۱۹۲۲ ؛ وهو سِفْرٌ يحتوى على أدلة حاسمة فى الخلاف القائم حول هذه اللغة ، فضلا عن الناحية الصرفية والاشتقاق من اللغات المتقاربة .

وأخيراً فإنه كان يتقن اللغات التركية ، وصدر له فى هذه اللغات سِفْران كبيران : أحدهما « كنز اللغة التركية الوسطى » Mitteltürkischen Wortschatz ، والآخر هو « القواعد النحوية فى اللغة التركية الشرقية للشعوب الإسلامية فى آسيا الوسطى » Osttürkischen Grammatik der Islamischen Kultursprachen Mittelasiens ، وهما سِفْران كان لا غنى عنهما للبحث اللغوى التاريخى فى اللغة التركية ، ولهذا كانت لهما أهمية كبيرة فى تذليل سُبُل هذه البحوث .

* * *

وقبيل وفاة بروكلمان كتب إليه طه حسين بأن الإدارة الثقافية فى الجامعة العربية قد اعتزمت ترجمة كتابه « تاريخ الآداب العربية » إلى اللغة العربية . والواقع أن أفضل وسائل التكريم لذكرى هذا العالم الكبير بالأدب العربى والصديق الوفىّ للناطقين بالضاد — هو ترجمة كتابه هذا بأجزائه الثلاثة إلى اللغة العربية .

عن الألمانية



نموذج من خط الدكتور بروكلمان بالعربية مذيل بتوقيعه